لسان المصري السكّين... حين تتحوّل "كس أمك" إلى لغة قوميّة

16 أبريل 2025

أدب وسخرية

9 دقيقة قراءة

لسان المصري السكّين... حين تتحوّل "كس أمك" إلى لغة قوميّة

ذاك أنّ اللسـان المصـريّ – الـذي نطـق يومـاً بحكمة إخناتون وفصاحة طه حسين – صار اليوم مجـرّد سـوط جنسـيّ يجلـد الأمهـات فـي كـلّ مناسبة. ليست هذه ظاهرة لغويّة عابرة، بل هي فضيحة حضاريّة مكتملة الأركان.

والحـال أنّ المصـريّ لا يحتـاج إلـى اسـتفزاز حقيقيّ كي يُطلق عقيرته: مجرّد نظرة، زحمة مرور، أو حتّى صمتك، كفيل بأن يُقال لك "كس أمك". هكذا ببساطة، كما لو أنّ هذه العبارة شهادة ميلاد للكلام، لا اغتصاباً لفظيّاً للكرامة.

لكنْ مهلاً: لماذا الأم؟ ولماذا العضو الجنسيّ؟ ولماذا هذا الانحياز الغريزيّ لاغتصاب معنويّ على الهواء مباشرة؟ أسئلة تطرق باب المجتمع، فلا يردّ عليها سوى المزيد من الشتائم.

أمّا المفارقة المُرّة فتتجلّى حين نعقد المقارنة المؤلمة: ففي دول الخليج، رغم انفتاحها التقنيّ وتحوّلها إلى عواصم عصريّة، لا تزال الشتيمة الجنسيّة محرّمة عرفاً، ومحرجة فطرةً، ولا يُقذف العــرض بالأمهــات فــي كــلّ خلاف تــافه. فالسـعوديّ إذا غضـب قـال: "اللـه يهـديك"، والمصريّ إذا غضب قال: "هنيك أمك". أيّ هوّة سحيقة تفصل بين من يحوّل الغضب إلى دعاء، ومن يحوّله إلى اغتصاب لغويّ!

والأغرب أنّ أيّ اختلاف في الرأي مع المصريّين – سواء كان سياسيّاً أو رياضيّاً أو ثقافيّاً – غالباً ما ينتهي بحمّام من السباب الجنسيّ. فإن قلت إنّ الزمالك أفضل من الأهلي، أو أنّ السيسي ليس نسخة من ناصر، أو حتّى إن انتقدت فيلماً

مصريّاً شهيراً، فإنّ الردّ سيكون في العادة عبوة ناسفة من الألفاظ تغتال أمّك وتنتهك عرضك. كما لو أنّ النقد يستدعي الاغتصاب اللفظيّ، وكأنّ حريّة الرأي تُدفن في مقبرة "كس أمك".

ولم يتنبّه الخليجيّون لهذه الظاهرة في السابق، لكنّ الهجرة المصريّة الجماعيّة إلى تويتر، واستضافة فعاليات البطولات المصرية الكروية، كشفت عن قاموس هجوميّ صادم. فمع كلّ مباراة كرويّة أو خلاف سياسيّ، تنفجر الساحة الافتراضيّة المشتركة بسيل عارم من التعبيرات الجنسيّة المقذعة. ثقافة لم يعتدها الخليجيّ الذي قد يشتم ويغضب، لكنّه يبقى في العادة خارج تلك الدائرة من اللغة المهتوكة.

ولعلّ من المفيد، قبل أن نمضي، أن نستكشف

جذور الشتم في تربة التاريخ المصريّ. فمصطلح "المعـرّص" بكافـة تفريعـاته اللغويـة -والـذي يتردّد يوميّاً على ألسنة المصريّين – ليس كلمة طائشة سقطت من السماء، بل يحمل خلفيّة تاريخيّـة ثقيلـة. ففـي العصـر العثمـانيّ، كـانت "العرصـة" تشيـر إلـى الأحيـاء التـي تُنظَّـم فيهـا الدعارة قانونيّاً، وكان على كلّ حيّ منها "شيخ عرصـة"، أي مشـرف رسـميّ علـى الـدعارة، لـه سلطة ونفوذ.

ولاحقـاً، ومـع الاحتلال البريطـانيّ، تحـوّل هـذا الدور إلى ما يشبه "الفتوّة" المحلّي المسؤول عن حماية الجنود البريطانيّين وتنظيم الدعارة لأغراض سياسيّة وأمنيّة.

وهكذا أصبحت كلمة "معرّص" تشير إلى الرجل

الـذي يـبيع العـرض مقابـل الحمايـة أو المـال. والمـدهش حقّـاً: هـذا المصـطلح الـذي كـان وظيفـة رسـميّة، أصـبح اليـوم أداة يوميّـة فـي التواصل الشعبيّ.

لو مضينا أبعد في التحليل النفسيّ، فسنجد أنّ فرويـد كـان سـيصف ظـاهرة الشـتم المصـريّة بعقـدة أوديـب جماعيّـة. فالمصـريّ، المقمـوع جنسيّاً، الممنوع من التعبير، لا يجد إلاّ جسد أمّ خصـمه ليقذفـه لفظيّـاً، كأنّهـا لوحـة ساديّـة لعدوان على الوطن الأم. وكأنّ الشتيمة جماع وهمـيّ يمارسـه اللسـان المهـزوم علـى عـرض الآخر، حين يعجز عن تأكيد ذاته بوسيلة حضاريّة.

أمّـا الإعلام المصـريّ، فقـد تحـوّل إلـى مصـنع للشتيمــة المؤسّســيّة بامتيــاز. مــن روايــات

الأسـواني إلـى الأغـاني الشعبيـة، تـمّ تطـبيع الشتيمة الجنسيّة، بل وتسويقها كرمز للواقعيّة أو الجـرأة. لـم يعـد يُسـتهجن أن يُقـال مثلا: "يـا عرص" على لسان البطل، بل يُضحك ويُصفّق له. كأنّنـا أمـام دولـة يتشكّـل دسـتورها مـن مـادّة وحيـدة: يجـوز اغتيـال العـرض لفظيّـاً، فـي أيّ وقت، لأيّ سبب.

والنخـب الثقافيّـة، بـدورها، لعبـت دور المهـرّج الرسميّ في هذا السيرك اللغويّ، صامتة حيناً، ومبرّرة أحياناً، بل وتكتب عن "عبقريّة الشتيمة" بوصـفها أدبـاً شعبيّـاً! لقـد بـاتت التفاهـة مـادّة بحثيّة، والوضاعة تراثاً، في عيون نخبة فقدت معـايير النقـد، فلـم تعـد تكتـب، بـل تشتـم بنـبرة نيتشويّة خادعة.

وإلـى جـانب الشتيمـة الجنسـيّة، ثمّـة شتيمـة مذهبيّة تكشف العمق السقيميّ للظاهرة. فـ "يلعن دينك" ليست مجرّد غضب عشوائيّ، بل تعـبير تـاريخيّ عـن مجتمـع تعـدّديّ دينيّـاً، فقـدَ قدرته على التمييز بين الخصومة والوجود.

يُرجّح أنّ ظهور هذه الشتيمة ارتبط بشكل أكبر بسـقوط الدولـة الفاطميّـة الشيعيّـة وعـودة العقيدة السنّية، حيث تحوّل الدين من معتقد إلى هويّة صداميّة. فالمصريّ حين يسبّ الدين، لا يسبّ معتقد خصمه فحسب، بل يضرب عمق هـويّته ووجـودهـ. وكأنّنـا بمجتمـع تحـوّلت فيـه الطائفيّة من صراع سياسيّ إلى منهج لغويّ.

في العقود الماضية، كان يُنظر إلى المصريّ كواجهـة للثقافـة العربيّـة، يتحـدّث بفصاحـة،

ويغنّي بعذوبة، ويكتب بحكمة. لكنّ اليوم، حين يظهر على شاشات السوشيال ميديا أو في مسلسلاته، تسبقه لغة سوقيّة وجارحة، تشتم قبل أن تتكلّم. بينما يصنع الخليجيّون محتوى نظيفاً وراقيًا حتّى حين يتحدّثون عن قضايا جادّة خلافية، يصنع المصريّ محتوى يحتفي بالبذاءة، بل ويفخر بها. وأصبح من الشائع أن يقول بعض العرب: "مصر؟ هؤلاء يشتمون أمّك قبل أن يسألوك عن اسمك". وهو قول مؤلم، لكنّه يعكس ما نراه لا ما نتخيّله.

وأدهى من هذا كلّه، أنّ ألفاظ السباب المصريّة، خاصّة ذات الطابع الجنسيّ، أصبحت جزءاً من اللغة اليوميّة في بعض الأوساط الاجتماعيّة، حتّى أنّ بعضها فقد دلالته الأصليّة،

وأصبح يُستخدم كتعبير عن الدهشة أو الإعجاب. أي أنّنا لا نعيش فقط في زمن الشتيمة، بل في زمن تبلّد الحياء، حين تُستخدم أكثر العبارات فحشاً كمرادفٍ للضحك أو الترحيب. مجتمع يرحّب بك بأن يغتال أمّك لغويّاً، ثمّ يتوقّع منك الابتسام والشكر

حين تسقط اللغة، لا تسقط المفردات فقط، بل تسقط الذاكرة الحضاريّة، ويسقط الحياء الأخلاقيّ، وتسقط الحدود بين التعبير والتهجّم، بين الغضب والتوحّش، بين الرجولة والبهيميّة. إنّ المجتمع الذي لا يرى بأساً في اغتصاب لفظيّ للأمّهات في الشارع، هو مجتمع يعاني من انهيار عميق في الأخلاق، وفي الذوق، وفي تعريف الإنسانيّة ذاتها.

الـدكتور أحمـد عبـد اللـه، أسـتاذ علـم النفـس، يقـول: "هنـاك يقيـن لـدى أغلـب النـاس بـأنّ الشتيمة هي الوسيلة الأسرع والأكثر فاعليّة للتعبير عن الغضب". لكنْ ماذا عن المجتمع الذي يعيـش علـى المسكّنات اللفظيّـة؟ يهـدأ بشتـم أمّهات الناس، ولا يهدأ إن انهار الجنيه!

أمّا الأديب أحمد خالد توفيق، فيتساءل: "لماذا اختـار ذلـك الرجـل تلـك السبّة تحديـداً مـن بيـن قـاموس الشتـائم المصـريّ العـامر بمفرداتـه؟" الجواب واضح كالشمس الحارقة: لأنّها لم تعد شتيمـة، بـل هويّـة صوتيّـة. كـأنّ المصـريّ أخـذ باسـبورته القـديم – الـذي تحملـه الفصاحـة والحكمـة – ومزّقـه، وأبـدله بجـواز سـفر جديـد اسمه "كس أمك".

ولنتخيّل لحظة أنّ إخناتون استيقظ اليوم، وطه حسين عاد ليسمع. أيّ صدمة ستنتظرهما حين يكتشفان أنّ لغة الحضارة التي بنوها وأثروها تحوّلت إلى مقبرة للقيم، وأنّ التهتّك الذي كان يستوجب العقاب بات يُفرَض باسم "الواقعيّة"؟

لا يليق بالمصري المسلم والمسيحي ،على حد سواء، أن يكون صوته اليوميّ: "كس أمك". لكنْ يبدو أنّ انحداراً ما أعمق من اللغة قد وقع.

ولا غرابة أنّ الذين ينشرون فقه الشتيمة في الطرقات، هم أنفسهم من يعظون الناس عن حرمة الزنا والعلاقات الجنسيّة خارج الزواج؛ كما لو أنّ اللسان الذي اغتصب ألف أمّ في النهار يصلح لإلقاء خطبة عن الطهارة في المساء.

وتلـك مفارقـة أخلاقيّـة مرعبـة، ففيمـا تُحبـس الأجساد في قفص التحريم، تُطلق الألسنة في مضمار الجنس كلّ صباح.

من أراد أن يعرف إلى أين تتّجه الأمم، فليستمع إلـى مفرداتها فـي ساعـة غضـب. والأمّـة التـي يغتصب بعضها أمّهات بعضها الآخر – ولو لغويّاً – هي أمّة لن تقف في وجه محتلّ ولن تبني تنمية ولن تصنع حضارة. لأنّ من لا يحترم مَحرم خصمه، لا يمكن أن يحترم قيمة أو فكرة أو مبدأ.

والمدهش حقّاً: أنهم ينفقون ملايين الدولارات لترميم الآثار الفرعونيّة، فيما يتجاهلون انهياراً أخلاقيّـاً يذبـح لغتهـم كـلّ يـوم؛ فكـأنّ القيمـة الحضاريّة في الحجر لا في البشر، وفي المتاحف لا في الشوارع.

الصدمة ليست في اللفظ، بل في أنهم توقفوا عن الشعور بالصدمة. كأنّنا أمام خريطة وطنيّة يُكتب عليها: "هنا مصر، أرض الحضارة... وكس أمك".